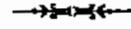


يحدث نفسه عن رفقائه المساكين الذين لم ينعموا بما ينعم به من عيش لين ولهو كثير ؛ ولا ينسى أن يرور في نفسه كلاماً يتأيه به عليهم إذا رآهم في الزقاق عند العشاء . ولكن الأب يمضى ... لا يلتفت إلى ثرثرة الطفل ، مسرعاً في مشيه ، موفصاً في خطاه ؛ والطفل يقفز وراءه ، كصفور جذلان ، ثم يقصد زقانا مظلماً من تلك الأتربة التي تخرج فيها رائحة العفن ويتعالى النبار ... فينتقبض صدر الطفل ... فقد حدثه أن الشيخ كامل ، وهو مصدر التقوى والمعة والصلاح - كما حدثه أبوه - ومصدر الخبث والشر والفساد - كما حدثه رفيقه - يقطن بهذا الزقاق . فيسكي الطفل بدموع غزير ومحاول الفرار ، ولكن الأب ممسك بيد ابنته يجره ويدفمه ويفريه باللعب إذا بلغ البستان ، وينفحه « بنصف مجيدى » لينقطع عن البكاء . حتى إذا بلغ غاية الزقاق ، عرج به فطرق باباً غليظاً . ويقف الطفل ، ما يدري لم يجره أبوه وهو الذي يحبه ، ولم يدفمه وهو الذي يؤثره على نفسه . ويفتح الباب شيخاً ، كان كلما تمثله في خاطره بعد ذلك اليوم قف شعر رأسه ، وأغمض عينيه من الاشمئزاز : فقد بقي في ذاكرته ، أنه كان ذا قامة فارعة ، مسنون الوجه أسمره ، خفيف المارضين ، لم تبق الأيام من لحيته إلا شعرات لا لون لها نبتت هنا وهناك ، تقفز وتهتر كما ضحك أو تكلم . وبقي في ذاكرته أيضاً أنه كان أردد ، إلا من بضعة أسنان ملتوية صفراء تبعثت في فمه الذي حسبته مغارة الجن وماوى الشيطان . أما عيناه فكانتا غائرتين صميرتين ... يرد الباب على موقعها ليرتشف الطيبات ، وهو يذكر أيضاً تلك السبحة الطويلة التي علفها في عنقه ... وحسب حياتها الكبيرة « دحاحل » رفقائه الصغار ، وتلك الجبة التي حال لونها وسخف نسجها . ويادره الأب بالسلام ، فهش الشيخ ويش ، ثم يرحب ويقول : ما شاء الله ... ما شاء الله ... ثم يربت على كتف الطفل مردهداً كلمات وتعاويد لم يفهم الطفل لها معنى وإن كانت أطربته فأنصت لها . ويدخل الأب ويقيم الطفل قائلاً بصوت حزين : « أهنا البستان يا بابا ؟ » ولكن الأب يحتمل عليه ويسلمه للشيخ ليطممه من نقله المبارك . فيدخل الطفل تتنازعه الرهبة من أبيه والرغبة في تقل الشيخ ، ويرى فيما يراه آتئذ غرفة مظلمة سوداء لقي فيها

كان ما كان ! ...

للأستاذ صلاح الدين المنجد



ترى لم تُحط هذه الطيوف بمضجى ... في هذا الليل اترسنان ، فتملاً نفسي حينئذ إلى أيام الطفولة اللاهية ، ومرابع العيش الرعيد ؟ ... ولم ترقص حولي ، قافزة من حفاقي السرير ، رائمة في حنايا الستور ... فتدفعني إلى إغماض جفني ، أستشف من خلل الهدب الرفاف بالدمع ، تلك المعاني الحبيبة ، التي فارقها منذ بعيد ... فأضحت - يارحمتا لها - خلاء ، لا البشر يضحك في جنباتها ، ولا الأم الرؤوم تناغي فيها الوليد ...

لقد رأيت الآن ... ذلك الطفل الذي درج بالأمس على قبلات الأهل ، وبسات الجيران ؛ وتمثلته ، وقد نبت بين الفضة الباهية والذهب الرتان ... ولحمت أمه تنظر إليه ضاحكة جذلي ؛ ترى فيه منية النفس ورغبة الشباب ، ثم أراه ... يرتع فوق الأرائك مع أخيه ، في غرفة واسعة ، وقد روت الليل ، وانتشر الظلام ، وأرنبو إليه يرس حديثاً في نفسه ، كان قد سمعه من جارتة الصغيرة تحت شجرة الليمون في النهار ... ثم يسمع إلى أبيه يمس في أذن أمه أن « سأودعه دار الشيخ فداً ... ! » ، فلا يفهم الطفل عنه ، ولا يحاول الفهم ، على الرغم من حبه للاستطلاع ، ورغبته في الكلام ... فقد كان له في كرتة الصغيرة ، وفي أخيه الحبيب ، غنى عن السؤال ، وغنى عن الكلام ! ...

ويتهادى الصبح باسماً كغفانية خلوب ، فينتشر النور ويتشع الظلام . فإذا كان طقل الغداة ، نادى الأب ابنه ، ليرافقه إلى البستان . وتسرع الأم فتلبسه الرداء الفاخر والحذاء اللاع . لقد غضب آتئذ ، وعلم أن الرداء يمزق فوق العنصون الدوالي ... وأن الحذاء سيبل في التراب الأحمر الناعم . ولكن الأب يمسك بيد ابنته ويمضى ... وقد أطرق الوليد يفكر في الشجيرات التي يجملها أرجوحة له ، والفراشات التي سيطاردها في كل مكان والمصافير التي سيقفز ليقبض عليها ... فتفتلت منه ... والأزاهير التي يجملها إلى جارتة الصغيرة إذا رجع إلى الدار مع اللساء . ثم

بين الحبل والخشب ، ويفتل الخشبة مع صبي آخر ... ويضربه بقضيب من خيزران ضربات موجعات فيصيح الصبي ويستعطف الشيخ ، ويقسم لئن تركه ليحفظن الدرس ولكن الشيخ لا يلتفت إليه ، فهو لاه عنه بمدّ الضربات ا ...

ويرأى الدمع في عيني الطفل - شفقة على رفيقه الصغير - فهب متاديا : « هذا رفيق ... ليش تضربه ؟ »

فيحذق الشيخ في الطفل يوعده بالجزاء ، فترعبه نظراته ويلجأ إلى البكاء ... ويصرخ ويصيح ... وينادى أمه وأباه ، ويضرب وجهه بكفيه والأرض بقدميه ، فيحوّل الشيخ ويرجع ويترك الصبي ليرنّ الطفل ، والطفل يبكي ويصيح ... فيمضى الشيخ ... ليأتي « بسكا كره » المحورة ، فينقطع الطفل فجأة عن البكاء . وينظر إلى رفاقه ويقول :

« راح ... هيا ... تعالوا نهرب قبل أن يجيء ... نلتق الباب ... ألسنا أقوياء ... نخفي في الرقاق ... قوموا ... قوموا ... » ولكن الصبيان الذين ألفوا الذل زاعطادوا الضرب ، أنكروا ما قاله الطفل ... فلم ينتظرهم بل تأبط حذاءه ... وقام يعدو نحو حنّ الدار ... ثم فتح الباب وخرج إلى الرقاق يتنفس الصعداء ...

ويمود إلى الدار كالقائد الظافر .. فيستعيد أبوه من الشيطان عند ما يراه ، وتشفق أمه من العجب فتسأله كيف فرّ من الكتاب ! ولكنه بطاطى رأسه ويسرع فيزرع ثيابه . ثم يتسلق خشب العريشة ، وينادى ابنة جاره الصغيرة فيسألها :

— أتلمين بالدحاحل يا حسنا ... لقد عدت من البستان !
أما الأب فيمبس ويشور . وأما الأم فتضحك وتقول :
دعه ... فإنه صغير

وانتمست في الفراش ، وفي العين دمة ، وفي الصدر آهة ،
وفي النفس آلام
« دمشق »
صريح الدببة المنجم .

رفقاه الصغار ؛ وقد جلس أحدهم فوق قطعة من الحصير البالي ، يردد كلمات أفزعته وأضحكته ، منحنيا إلى الأمام وإلى الورا ؛ ووقف ثان يحملق فأغراً فاه ؛ وانحنى ثالث يبكي بكاء كمواء الكلاب ؛ فتستولى الكتابة على الطفل ويتقبض صدره ، ويرتد راجماً ليرى أباه ، فإذا بأبيه قد فر ، وإذا بالشيخ يلحق به ليرجمه وفي يده بضع « سكرات » يدفعها إلى فم الصغير . ويجلس الطفل بجانب الشيخ على دكة من القش . لقد جال بصره في هذه الغرفة الحفيرة ، فرأى أشياء أنكرها ، ولم يكن له بها عهد من قبل : شمر بهذا الظلام الذي يرفرف فوق الغرفة فيجملها كالقبو الذي تضع فيه أمه مارت من الأثاث ، ورأى هذه المناكب التي امتدت في أعالي الجدران كأنما تريد أن تزّين الغرفة كما تزّين أمه الجدران بأوراق الشجر وأزاهير البستان ، ولس الحصير البالي فأبصر الخشب وقد نخره السوس ، وحدق بتلك الخشبة المستديرة المستطيلة كبنديفة خاله التي ودّ لو يحملها ليصبح جندياً فأبوا عليه ذلك ، فتساءل لم علّقها الشيخ ولم يهدّد بها الصبيان ؟

عندئذ ضاقت نفس الطفل فانفجر باكياً ... ويقوم الشيخ ليخفف عن الطفل حزنه ... ويكفكف دمه ، والصبيان برمقونه دهشين ، يحسدونه على ما يلقى من عطف ، وما يظهره الشيخ من لطف ، على حين يضربهم ضرباً أو يصفعهم صفعاً ... ولكن الطفل لا يهدأ ، بل يزداد بكاءً وصراخاً ، شأن الأطفال كلهم ، فينادى الشيخ زوجته « الشيخة صفية » ، التي علم الطفل أنها تجمع النساء يوماً في الأسبوع ، ليقرأن معها « الورود » ، ويتقرن الدفوف ، ويمهزن الروادف والبطون ابتداء مرضاة « الشاذلي » وتقرباً من الرسول ... وما يكاد يراها الطفل حتى يتولى عنها ؛ فإن تلك الشمرات الطويلة التي نبتت على شفتها العليا ، وتدلّت فوق فمها الرخو أزججته ، على الرغم من دعائها له ، وصلاتها على النبي ، وقبلاتها التي اتشم منها بدنه ... فيمود إلى غرفة الشيخ يسأله عن أبيه ، فإذا به يجده يصرخ برفيق له ، ثم يدفعه إلى الأرض ثم يمدد إلى تلك الخشبة المستديرة ، فيجعل رجلي الطفل